هوامش

حددت مجموعة بحثية سلسلة من الارتباطات بين التصميمات المنقوشة على الأختام الأسطوانية في العراق، التي يعود تاريخها إلى نحو ستة آلاف عام، وبعض العلامات في النص المسماري البدائي الذي ظهر في مدينة أوروك

ظهرت الكتابة المسمارية نحو 3350-3000 قبل الميلاد (سي إم ديكسون/Getty)

الكتابة في العراق

الأحرف المسمارية الأولية ظهرت في أوروك

محمد الحداد

تعود أصول الكتابة في بلاد ما بين النهرين إلى الصور المطبوعة على أختام أسطوانية قديمة على ألواح طينية وغيرها من القطع الأثرية. في دراسة جديدة نشرت يوم 5 نوفمبر/تشرين الثاني الحالي في مجلة Antiquity، حددت مجموعة بحثية من جامعة بولونيا سلسلة من الارتباطات بين التصميمات المنقوشة على هذه الأسطوانات، التي يعود تاريخها إلى نحو ستة آلاف عام، وبعض العلامات في النص المسماري البدائي الذي ظهر في مدينة أوروك الواقعة في ما يعرف الآن بجنوب العراق، قرابة 3000 قبل الميلاد.

تقول المؤلفة الرئيسية للدراسة، سيلفيا فيرارا، أستاذة اللغة الكلاسيكية والدراسات الإيطالية في جامعة بولونيا، إن الكتابة المسمارية الأولية ظهرت في مدينة أوروك الواقعة في جنوب العراق الحالي، نحو 3350-3000 قبل الميلاد. الخط المسماري القديم أحد أوائل أنظمة الكتابة، وطُوّر لتلبية الاحتياجات الإدارية المتزايدة للمدن القديمة، وفقاً للباحثة في تصريحات لـ«العربي الجديد». «في البداية، اعتمدت المجتمعات القديمة في بلاد ما بين النهرين على الرموز والأختام، مستخدمة الألواح الطينية والكرات الطينية لتوثيق المعاملات والحفاظ على السجلات. وضعت هذه التقنيات المبكرة الأساس لنظام قائم على الرموز قادر على تمثيل المعلومات المعقدة، مثل حركة البضائع، والأدوار الاجتماعية، والممارسات الدينية»، تقول فيرارا. وفقاً للدراسة، فإن الأختام الأسطوانية، التي كانت محفورة بأنماط مختلفة وتدحرج على الأسطح الطينية، كانت ضرورية للممارسات الإدارية في ذلك الوقت. كانت هذه الأختام تستخدم لتأمين الحاويات، وتحديد الملكية، وتسجيل المعاملات، ما يوفر مستوى من الأمان والشرعية. حدّد الباحثون أوجه التشابه الرمزية بين هذه الرموز الختمية ما قبل الكتابة وعلامات الكتابة المسمارية الأولية، ويجادلون بأنها تمثل خطوة مبكرة نحو نظام كتابة متكامل.

تسلط الدراسة الضوء على عدة زخارف أختام تحمل تشابهات لافتة مع علامات الكتابة المسمارية البدائية، مثل تلك المتعلقة بنقل المنسوجات والأوعية وتخزينها. على سبيل المثال، يشير الباحثون إلى زخارف القماش المزين والوعاء الشبكي، الشائعة في الأختام ما قبل الكتابة الحديثة، وتبدو كأنها سابقة لبعض العلامات المسمارية البدائية. وتشير الدراسة إلى أن هذه الرموز، التي كانت تستخدم على نطاق واسع في جنوب غرب آسيا، كان لها دور أساسي في تشكيل مفردات بصرية مشتركة أثرت على اختراع الكتابة.

ظاهرة أوروك، وهي فترة من التوسع الحضاري والتبادل الثقافي من جنوب العراق إلى جنوب شرق تركيا، سهلت انتشار الأدوات الإدارية مثل الأختام والألواح الطينية. خلال هذه الفترة، أصبحت أوروك مركزاً حضارياً بارزاً، مستفيدة من الوصول إلى الطرق النهرية على طول نهري دجلة والفرات، ما مكّن حركة البضائع والموارد والأفكار. يشير انتشار الأختام الأسطوانية ورموزها المصاحبة عبر منطقة شاسعة إلى شبكة مترابطة، حيث شارك النخبة في التقاليد الإدارية، ما يعزز النفوذ والتماسك الإقليمي، وفقاً للمؤلفين. تضيف فيرارا: «حدد الفريق أنماطاً تعمل مقدمات بصرية لعلامات الكتابة المسمارية البدائية. من بين هذه الصور، هناك مجموعة لأشخاص يحملون المنسوجات والأوعية، تعكس هذه الأغراض تركيز المجتمع على تخزين ونقل وإدارة السلع. نمط القماش المزين الذي غالباً ما يصور في الشعارات المطبوعة على الأختام، ونمط الوعاء الشبكي المستخدم لتسجيل العناصر في النصوص الأولية للكتابة المسمارية، يشيران إلى تطور من التمثيل التصويري إلى الرموز الموحدة».

يعتقد الباحثون أن هذه التشابهات بين صور الأختام وعلامات الكتابة المسمارية الأولية، هي إشارة إلى استمرارية التمثيل الرمزي، ما يجسر الفجوة بين التواصل القائم على الصور واللغة المكتوبة. وبينما سمحت الكتابة بتوثيق أدقّ، استمرت زخارف الأختام في تشكيل لغة الرموز حتى المراحل المبكرة من تطور الكتابة المسمارية البدائية. «تؤكد نتائج هذه الدراسة أن أصول الكتابة لم تكن ظاهرة معزولة، بل كانت تطوراً تراكمياً تشكل بفعل الممارسات الإدارية الطويلة الأمد، والتبادلات الثقافية عبر جنوب غرب آسيا. من خلال تتبع تحول رموز الأختام إلى رموز مكتوبة، أوضحنا كيف يمكن للرموز البصرية أن تتطور إلى نظام موحد، ما يوفر كلًّا من الفائدة الإدارية والاستمرارية الثقافية»، تقول المؤلفة الرئيسية للدراسة.

باختصار

الخط المسماري القديم أحد أوائل أنظمة الكتابة، وطُوّر لتلبية الاحتياجات الإدارية المتزايدة للمدن القديمة

■■■

أوروك مركز حضاري بارز، استفاد من الوصول إلى الطرق النهرية على طول نهري دجلة والفرات، ما مكّن حركة البضائع والأفكار

■■■

بينما سمحت الكتابة بتوثيق أدقّ، استمرت زخارف الأختام في تشكيل لغة الرموز حتى المراحل المبكرة من تطور الكتابة المسمارية

وأخيراً

حقيبة واحدة لا تكفي

سما حسن

الدقائق القليلة التي كنت أقف خلالها بين الرّكام في منزلي في شمال غزّة، وحيث تعرّض للقصف في اليوم الرابع من هذه المقتلة، كنت أعيش أصعب مواقف حياتي، أو بالأدقّ أنني وُضعت في حالة اختراع خياراتٍ من أجل أن نهرب، أو من أجل خطوةٍ ما زلت أندم أنني أقدمتُ عليها حتى اللحظة، لأن فداحة نتائجها قد أقامت مقتلة أخرى في داخلي تُميت كل شيء، حتى بتّ أشبه الميّت الحي، لأن الإنسان، وفي اختصارٍ بسيط لتكوينه، هو مجموعة من الذكريات. وفي حالٍ فقدها، يصبح مثل لعبة طفلٍ عابث، أفرغ تجويفها فلم تعد تضيء ولا تغنّي ولا تتحرّك، هي مجرّد مجسم صامت، يركله الطفل بقدميه، وتوشك الأم أن تلقي بها في أقرب حاوية.

الدقائق القليلة التي كنتُ أقف فيها بين ركام المنزل، فيما كانت الأخبار تذيع في كل مكان، أوامر التوجّه إلى جنوب وادي غزّة، وفيما كنت أصرُخ، وأنا أتعثّر بأشياء مهشّمة، وببقايا أثاث وأجهزة، بأولادي أن يجمعوا ما خفّ وزنُه وغلا ثمنه. وكنت أقصد بغلاء الثمن ما يحتاجون إليه أكثر، فيما كان غلاء الثمن بالنسبة لي غلاء هذا الشيء إلى قلبي وروحي. ولذلك وقفتُ صامتة أنظر بعيني إلى الركام الذي ارتفع مثل هضاب تكاد تكون أطول مني، وأحاول أن أنبش لأحصل على أشياء مهمّة، فيما كنت أردّد للأولاد بصوتٍ مرتجفٍ تخالطه الدموع: إن هي إلا بضعة أيام وسوف نعود، وسيكون لدينا وقتٌ كثير لننبش عن كل أشيائنا الغاليات. كان سائق الأجرة القروي البسيط، الذي ينهب الأسفلت نهباً، ما بين شمال القطاع وجنوبه، قد أطلق إنذاره الأخير لي، حيث قال: أمامك نصف ساعة حتى أصل، لقد أوصلت عائلة إلى مدينة رفح، وسوف أوصلكم في أقل من نصف ساعة، لأني أطير بسيارتي وأسابق الطائرات التي لا تتوقف عن إطلاق الصواريخ.

نظرتُ حولي مرّات عديدة، حتى شعرت بدوار، وأنا أفكّر فيما يمكنني أن أحمل من بقايا هذا البيت، الذي يحكي حكاية عمري مع أولادي، ماذا يمكنني أن أترك لأواسي نفسي أن هذا الشيء غير مهمّ. وركلت مقعداً تهشّم نصفه بقدمي، وسمعتُ ضحكة أولادي ترنّ فوق باقي المقاعد المهشّمة. مشيتُ باتجاه بقايا مطبخي الصغير الدافئ، وأمسكت فنجان شاي ذهبي اللون، وهو الذي تبقى من إخوته الستة، والتي تناثر زجاجها حوله، ونظرتُ إليه وتأملته، وتذكّرت أنه يكبر أكبر أولادي عمراً، وتذكّرت أن جارتي الفقيرة في بيت عائلتي قد أهدت هذه الفناجين الستة لي، وظلت على حالها أكثر من ثلاثين سنة، وكلما رأيتها تذكّرت أيامنا الجميلة وقت حصاد شجرة الزيتون في باحة بيت أهلي، والنكات التي كنا نتبادلها خُلسةً من أمي، حيث تزجُر جارتنا الراحلة بتأنيب أنه لا يجوز أن تتحدّث بهذه النكات أمام الفتيات الصغيرات. وضعت الفنجان الوحيد في حقيبة، ولففتُه بقطعة من الملابس، ثم هتفتُ مطلقة الإنذار الأخير للأولاد: لم يتبقّ كثير من الوقت، حاولوا أن تنتقوا أهم الأشياء، وقبل أن أكمل عبارتي كان كل واحد قد حمل حقيبة متخمة بأشيائه، ونزلوا تباعاً وبصعوبة، باستخدام الدرج المهشّم، وتركوني وحيدة بين الأنقاض، فنظرت حولي للمرّة الأخيرة وهمست إلى نفسي: عليّ أن أنقل هذا كله لأنني لا يمكنني أن أختار، وانطلقت الدموع بحرية من عيني، وبدأتُ أجمع ألبومات الصور وبعض الملابس، ونسيتُ أن أحمل بعض معلباتٍ ابتعتُها، على اعتقاد أننا سنبقى في شمال غزّة حتى ينتهي هذا الجنون، وهكذا غادرنا شمال غزّة منذ سنة. وكلما تابعت صمود أهله وإصرارهم على عدم النزوح إلى جنوب القطاع، عضّتني أنياب الندم، لأنه كان لديهم وقتٌ كثير لكي يكتشفوا أن الحياة بدون بيت هي الموت. وأنا اليوم بلا حياة، لأن البيت ليس مالاً سوف يعوّض، هو الحياة، وأنت تبنيه مع لحمك ودمك، ولا يمكنك بأي حال أن تجمعه في حقيبةٍ، فهي حتماً لن تكفي.

> البيت ليس مالاً سوف يعوّض، هو الحياة، ولا يمكنك بأي حال أن تجمعه في حقيبة، فهي حتماً لن تكفي

سعر النسخة، مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**